الحضور الإيراني في الأزمة السورية: قراءة تحليلية

محجوب الزويري

أستاذ مشارك في التاريخ المعاصر، جامعة قطر

ملخص

تقدم هذه الدراسة رؤية تحليلية لمسارات الموقف الإيراني من الثورة السورية التي تحولت إلى أزمة، تلك المسارات التي بدأت مع بدء الثورة السورية، وتشكلت وفق التطورات اليومية في المشهد السياسي السوري، وكذلك وفق تطورات المشهد السياسي الإيراني، والمشهد السياسي الإقليمي والدولي. وتتناول الدراسة التغيرات المتسارعة التي تطال ملفات مهمّة تعدّ إيران حاضرة فيها، كالملف النووي الإيراني والاتفاق النهائي الوشيك في نهاية حزيران 2015، وكذلك التأثيرات المحتملة لعملية عاصفة الحزم على اليمن في مسار الموقف الإيراني من الثورة السورية، وكذلك تأثير التقدم الذي يحققه تنظيم الدولة الإسلامية، وما إذا كان يفيد إيران أم يضيف تحديات جديدة أمام السياسة الإيرانية في المشهد السياسي العربي بشكل عام.

مقدمة

بعد حوالي ثلاثة أشهر من حرق التونسي محمد بوعزيزي نفسه وانطلاق شرارة ما يسمى بالربيع العربي في ديسمبر 2010، خرج جمع من السوريين في درعا بمظاهرات مطالبين بالإصلاح السياسي في سوريا، مظاهرات كانت أقرب إلى تلك التي بدأها المصريون من قبلهم والتونسيون والليبيون. ردُّ الحكومة السورية شأنه شأن ردود حكومات الدول سالفة الذكر كان التشكيك في فكرة المطالبات ذاتها، باعتبار أن الناس في تلك البلدان يعيشون في جنة الله على الأرض!

وبعد التشكيك في المطالبات كان ربط من خرجوا بقوى خارجية منها إسرائيل، وشيطنتهم، والرد على ذلك بمظاهرات تأييد باهتة معروفة من حيث الوجوه والخطابات، وبالتزامن مع ذلك كان الرد القوي العنيف بقتل الطفل السوري حمزة الخطيب الذي تحول مع آخرين إلى أيقونة للثورة السورية.

ردود الفعل من الخارج كانت تحت وطأة الصدمة والدهشة من ظاهرة ما يسمى بالربيع العربي. فأحسن السيناريوهات المتوقعة للتغيير السياسي في الواقع العربي كان الانقلابات العسكرية، أو تغييرات مماثلة لما

رؤية تركية
2015 - 14
146 - 133

حصـل في العراق من تدخل أمريكي. في هذا السـياق كانت الردود متأثـرة بواقع المفاجأة، وكانـت متدرجـة وفق تطـور الأحداث على الأرض، ولاسـيّما من الـدول الحليفة للنظام السـوري، أو الدول الراغبة في المحافظة على الوضـع السـياسي في المنطقة مـن دون تغيير. إيـران بوصفها حليفًا للنظام السـوري كانت المثال الأبرز لتطـور الموقف وتأثره بتطورات الأحداث على الأرض.

تهـدف هـذه الدراسـة إلى تحليـل الموقف الإيراني من الثورة السورية التي تحولت وفق مصطلحـات الإعلام والسياسـيين إلى أزمة. ويشـمل هـذا التحليـل تتبّـع تطـور الموقف الإيـراني وخلفيـات هـذا الموقـف، وكذلك علاقـة الموقف الإيـراني من الثورة السـورية بالتطـورات في ملفـات أخـرى، مثـل الملف النووي الإيراني وظاهرة الدولة الإسـلامية، والموجة الطائفية في المجال السياسي العربي.

إيران وسوريا: خلفية العلاقة

تطـورات العلاقـة بـين طهران ودمشـق في المجـال السـياسي ملتهب ومشـوش. هذا المجال السياسي مرتبط بنظام سياسي في حالة ثورة آنذاك –1979 والمقصود هنا الجمهورية الإسلامية– مرفوضٍ من قبل محيطه السياسي والمحيـط الـدولي، ونظام آخـر لديه خصومة مع محيطه العربي، فالنظام السـوري في مطلع الثمانينيـات كانـت لديـه أزمـة متفاعلـة مـع حزب البعث في العراق بقيادة صدام حسين، وأزمة مع النظام الملكي في الأردن. فالنظامان السياسيان السـوري والإيراني جمعهما تحالف من أجل البقاء. وتعزز هذا التحالف بسـبب لجوء النظامين إلى وسـائل القوة الناعمة التي تتسـرب إلى الـرأي العـام العـربي، وتحـدث فجوة بين ذلك الرأي العام وبين الحكومات. كان أهم وسائل القوة الناعمة هو الموقف من القضيـة الفلسـطينية. كان الإعـلان الإيراني بعدم الاعتراف بإسرائيل، ومنح مقر سـفارة إسرائيل لمنظمة التحرير الفلسـطينية– بمثابة الخطـوة الأولى والأبرز التـي اعتمدتها إيران لتعزيز حضورها السياسي في المجال السياسي

العـربي. يضـاف إلى ذلـك موقـف النظامين مـن الأنظمة الملكية بشـكل خـاص في العالم العـربي، وترويج أنها أدوات أمريكية كما كان النظام الملكي البهلوي في إيران.

تطـورت العلاقـة بـين البلديـن بسـبب الحرب العراقيـة الإيرانية، وتزايـد التحالف صلابة، ولاسـيّما مع السياسة السـورية التي فتحت الباب أمـام الإيرانيين لزيارة الأماكن الدينية المقدسة لدى الشيعة في سوريا. كانت سـوريا منفذًا سياسـيًّا واقتصاديًّـا واجتماعيًّا للمجتمع الإيـراني بعد الثـورة. من هنا ومع انتهاء الحرب العراقية الإيرانية كانت العلاقة قـد ازدادت قـوة، وقَـويَ ارتبـاط البلديـن سياسـيًّا واقتصاديًّـا، ولاسـيّما مـع اسـتمرار حصول سـوريا على النفط بسعر رخيص من إيران، واسـتمرار البلدين في اسـتثمار القضية الفلسـطينية والتشـكيك في مواقـف الـدول العربيـة الأخرى. تزايدت قـوة العلاقة حين وقـف البلـدان بصلابة أمـام اجتيـاح النظام البعثـي في العـراق الكويت في عـام 1990، وكان موقـف البلديـن هـو ذاتـه موقـف الولايات المتحدة ودول أخرى، بعدم السماح بتغيير الجغرافيا السياسية في المنطقة.

الاختبار الحقيقي للحلف الإسـتراتيجي بين دمشـق وطهران كان مؤتمـر مدريد الذي عُقـد في عام 1993، حيث حضرت سـوريا محادثات السلام على طاولة واحدة مع الدولة التـي لا تعـترف بهـا إيـران وهـي إسرائيـل. لم تتوقـف إيـران عنـد هـذا التطـور كثـيرًا، فقـد كان واضحًـا أن النظامـين عـلى معرفـة بالحـدود المشـتركة بـين البلديـن، وأن هناك هامشًا من التحرك لكل بلد من دون أن يضر بتحالفهـما. التعليق الإيراني آنـذاك كان يركز على أن سـوريا مـن حقها أن تفعـل كل شيء لاسـترداد أراضيها. ومع التلكـؤ الذي طال المفاوضـات في الجانب السـوري الإسرائيلي طـوال عقـد التسـعينيات، وعـدم الوصـول إلى نتائـج مهمّـة- حافظت العلاقـة الإيرانية السـورية عـلى بريقهـا، ونجحـت في اختبـار كان يمكـن أن يؤدي إلى انهيـار التحالف. في هذا السـياق تجـب الإشـارة إلى أن الولايات المتحدة من خلال إداراتها المختلفة -باستثناء إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن- في أواخر التسـعينيات- حاولت تفكيك هذا التحالف، لكنها لم تنجح.

مـع انهيـار الاتحـاد السـوفياتي في مطلـع التسـعينيات مـن القـرن العشريـن، تزايدت حاجـة النظامـين السياسـيين إلى بعضهـما، فالتفرد الأمريكي بالمشـهد السـياسي الدولي، وقيـادة أوربـا بشـكل اختفـى فيهـا أي تأثير لدورها السياسي، كل ذلك ضاعف من عمق العلاقة بين البلدين، ولاسيّما مع اشتداد وطأة العقوبات الاقتصادية على إيران.

شهد عقد التسـعينيات تطورًا آخر يتعلق بالمشـهد السـياسي الداخلي الإيراني، فصعود التيـار الإصلاحـي بزعامـة الرئيس الأسـبق محمد خاتمي أسـهم في تغيير مسـار السياسـة الخارجية الإيرانية في منطقة الشرق الأوسط، ولاسـيّما العلاقـة مع الـدول العربيـة. فمبدأ "نزع فتيل الأزمات" الذي تبنّاه خاتمي ساعد إيـران على تحسـين علاقاتها مـع دول الخليج العربية. في السـياق نفسه تعززت علاقتها مع

سوريا في إطار المصلحة العليا للنظام السياسي الإيراني. لقد أصبح واضحًا أن التغيرات في المشهد السياسي الإيراني ومسألة التنافس بين ما يسمى بالإصلاحيين والمحافظين لا يبدو لها أي تأثير في مسار العلاقة بين النظامين السياسيين. الإشارة إلى هذا الأمر تبدو ضرورية في سياق فهم السياسة الداخلية وتبعاتها على السياسة الخارجية في ما يتعلق بالجمهورية الإسلامية في إيران. على الصعيد السوري، لم تؤثر وفاة الرئيس السوري السابق حافظ الأسد على مسارات العلاقة بين البلدين، فإيران ساندت الانتقال السياسي في سوريا من الأب حافظ الأسد إلى الابن بشار الأسد. هذا الأمر يؤكد مرة أخرى أن قرار العلاقة بين البلدين كان على مستوى بعيد عن تأثير الأشخاص أو الأحداث. فهي علاقة عابرة للأزمات، وكذلك بعيدة المنال من حيث القدرة على التلاعب بها من قبل السياسيين داخل كلا البلدين.

مع بدء القرن الحادي والعشرين، دخلت العلاقة بين البلدين فصلًا جديدًا متأثرًا بالتطورات المتتابعة بعد ما يسمى بالحرب على الإرهاب. فإيران التي شجبت ما تعرضت له الولايات المتحدة الأمريكية في سبتمبر 2001 ، دعمت الحرب على حكومة طالبان في أفغانستان، لتتخلص من عدو رأت فيها تحديًا لها في حديقتها الخلفية من الشرق، والمقصود هنا أفغانستان، ذلك أن إيران كانت ترى في طالبان حليفًا غير رسمي للمملكة العربية السعودية؛ الخصم الإقليمي التقليدي لنظام الجمهورية الإسلامية.

العلاقة بين دمشق وطهران تحسنت في ظلّ ما يسمى بالحرب على الإرهاب، ففي الوقت الذي شنت فيه الولايات المتحدة وحلفاؤها الحرب على العراق في عام 2003، رأى البلدان أن الثقة بواشنطن وما تفعله في العراق هو نوع من السذاجة المكلفة سياسيًا، من هنا كانت إيران تؤيد الخطوات الدولية لتشكيل نظام سياسي جديد في العراق مستند إلى هوية مذهبية وطائفية، وكانت سوريا تفتح حدودها لكل أعداء الولايات المتحدة وخصومها من الجماعات الإسلامية الجهادية للتوجه إلى العراق لمحاربة الولايات المتحدة، ولعل الوضع الأمني المتفاقم في العراق في الفترة التي تلت عام 2003، وظاهرة التفجيرات واستهداف الشخصيات والمراكز ذات الطابع المذهبي ما هي إلا أدلة على التردي الأمني الذي انحدر إليه العراق في ظل وجود أكثر من 170000 جندي أمريكي وبريطاني في العراق من شماله إلى جنوبه. إيران وسوريا في سياق تلك التطورات، كانتا تركزان على حالة "الورطة" التي كانت فيها أمريكا، وهي الحالة التي تجعل الولايات المتحدة تحجم عن أي مغامرة عسكرية من شأنها استهداف كل من إيران وسوريا. يجب التذكير هنا أن الحرب الإعلامية التي تلت الحرب على العراق في عام 2003 كانت تتحدث عن الهدف اللاحق للعراق، وكان النقاش يركز على أيهما يكون الأول: إيران أم سوريا. وقد ظهر جليًّا أن النظامين في دمشق وطهران يريدان المزيد من توريط واشنطن وإن دفع ثمن ذلك العراق وشعبه. ويبدو أن إستراتيجيتهما نجحت في إبعاد الخطر عنهما.

لكنها أبقت العراق خطرًا محدقًا حتى كتابة هذه الدراسة.

ظهر تناغم واضح في علاقة البلدين، ولاسيّما حول الملف العراقي، فالبلدان اللذان احتضنا المعارضة السياسية لنظام البعث في العراق، والتي تولت زمام الأمور في العراق بعد عام 2003، لها ارتباطات مع النظامين بشكل أو بآخر ، كل هذا جعل حضور البلدين في المشهد السياسي العراقي بارزًا ومؤثرًا، رغم الانتقادات التي كانت الحكومة العراقية توجهها إلى الحكومة السورية، ولاسيّما في الأعوام ما بين 2004-2007 فيما يتعلق بغض الطرف عمّن تسميهم الحكومة العراقية آنذاك بالجهاديين والإرهابيين.

حافظت العلاقات على زخم قوي، ولم تنجح كل المحاولات في الحد منه، وبدا النظامان أكثر تقاربًا كلما زادت محاولات إحداث أي قطيعة بينهما. وهكذا ومع تعقيدات الوضع في العراق، والتدهور الذي حصل في لبنان بعد اغتيال رئيس وزرائه رفيق الحريري في عام 2005- بقي البلدان يدافعان عن خيارات بعضهما السياسية، فقد ظهرت إيران في موقف المساند لانسحاب الجيش السوري من لبنان، باعتبار أن ذلك يتعلق بالسيادة السورية، وهو ذاته الموقف الذي تبنته إيران من سوريا عندما دخلت في مفاوضات مؤتمر مدريد في عام 1993 . هذا الأمر يظهر مدى تفهم كل نظام لاعتبارات النظام الآخر، كما أنه يظهر المرونة السياسية التي تتحرك في سياقاتها علاقات البلدين.

الأمر الذي لا يقل أهمية عن ذلك هو أن التطورات المتلاحقة تظهر كذلك قدرة كل من النظامين السياسيين على الفصل بين ما يحتاجه النظام السياسي من النظام الآخر، وبين ما يحتاجه النظامان من الآخرين في

الاختبار الحقيقي للحلف الإستراتيجي بين دمشق وطهران كان مؤتمر مدريد الذي عُقد في عام 1993، حيث حضرت سوريا محادثات السلام على طاولة واحدة مع الدولة التي لا تعترف بها إيران وهي إسرائيل

العالم، وتلك معادلة تمكّن النظامين من المرور من منعطفاتها الحادة حتى مطلع عام 2011 حيث بدأ ما يسمى بالربيع العربي يأخذ طريقه إلى سوريا.

ربيع العرب والاختبار الأخير في العلاقة السورية الإيرانية

تفاجأت إيران شأنها شأن دول أخرى بكرة الثلج المتدحرجة في بلاد العرب المسماة بـ"الربيع العربي". وكانت مفاجأة إيران من طراز مختلف. فبالنسبة لطهران أن يثور التونسيون أو المصريون أو اليمنيون يمكن أن يُفهم في إطار أن أنظمة تلك البلدان تسير في الفلك الأمريكي، لكن الحالة السورية لم تكن مفهومة لإيران من منطلق أنها ترى أن النظام السوري هو نظام يخدم خط مقاومة إسرائيل في المنطقة، وهو خصم إن لم يكن عدوًّا للولايات المتحدة. يبدو أن طهران لم تكن ترى أو ربما لم تكن ترغب أن ترى أن

تزايد الموقف الإيراني صعوبة عندما لم تنجح إيران في إقناع حماس بالوقوف إلى جانب النظام السوري ضد الشعب السوري، كما زاد الأمر صعوبة على طهران حين رفضت جماعة الإخوان المسلمين السورية ومعها التنظيم الدولي الحديث مع إيران لبلورة حل في سوريا تساعد في وضعه إيران

النظام السوري نظام مستبد، وأن ملايين السوريين تمامًا مثل ملايين الإيرانيين الذين ثاروا ضد النظام الملكي في مدن إيرانية في عام 1978 يستحقون حياة أفضل يرون أنهم لا ينعمون بها.

تشكّلَ الموقف الإيراني من الثورة السورية التي حوّلها المجتمع الدولي إلى أزمة تدريجيًّا، ووفق تطورات الموقف على الأرض. وفق هذا التدريج ظهرت المصطلحات التي تناسب كل فترة وكل موقف. في بدايات الثورة تبنت الحكومة الإيرانية موقف النظام السوري، على أن المتظاهرين أقلية مغرر بهم. ثم ما لبث أن تحول الموقف وفق إيقاع الموقف الرسمي القادم من دمشق، وذلك باعتبار أن المشهد السياسي يحتاج إلى إصلاح في سوريا، وأن النظام نفسه يقود عملية التغيير. الدعوة الإيرانية كانت في ذات السياق تؤكد الرواية الرسمية للنظام الرسمي بأنه مستهدف لكونه يدعم خيار المقاومة، كما أن القوى الخارجية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تستهدف سوريا كمقدمة لإنهاء خيار المقاومة في المنطقة تأمينًا لإسرائيل. كانت تسعى حالة الترويج لمثل هذا التفسير إلى البناء على الصورة النمطية والتقليدية التي كانت طهران ودمشق ومن قبلهما دول أخرى تتبناها، خلاصة تلك الصورة أنه كلما استحضرت إسرائيل كان الفرصة أكبر في الحصول على تأييد الرأي العام، ومن ثَمّ الحصول على مشروعية خارج حدود الممالك التي تحكمها تلك الأنظمة. تلك كانت وسيلة من وسائل القوى الناعمة التي ربما نجحت في سنوات ما قبل عام 2010، لكن المزاج في المنطقة تغير بعد العام المذكور. لم يقنع موقف النظام السوري السوريين المطالبين بالتغيير، ولاسيّما مع انتقال النظام إلى المواجهة المسلحة مع المظاهرات وتزايد أعداد الضحايا.

تزايد الموقف الإيراني صعوبة عندما لم تنجح إيران في إقناع حماس بالوقوف إلى جانب النظام السوري ضد الشعب السوري، كما زاد الأمر صعوبة على طهران حين رفضت جماعة الإخوان المسلمين السورية ومعها التنظيم الدولي الحديث مع إيران لبلورة حل في سوريا تساعد في وضعه إيران. كان كل ذلك بمثابة إعلان إخفاق لأدوات القوى الناعمة التي استثمرت فيها إيران بعد الثورة الإسلامية. بالطبع رفضُ حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، وكذلك تنظيم الإخوان فتح قنوات حوار مع إيران- يمكن تفسيره من خلال النظر إلى الفضاء المذهبي والطائفي في المنطقة الذي عززته السياسة الإيرانية من خلال التطورات في العراق سنة 2003.

عدم القدرة على التفاهم مع قوى الإسلام السُّني التي كانت تتهم دائمًا بأنها أداة من

أدوات إيـران أعطـى لهذه القـوى مصداقية، لكـن ذلك لم يكـن كافيًا لتـؤدّي تلك القوى أي دور حاسـم فيما يتعلق بالثورة السـورية، الأمـر الـذي فتح البـاب أمام قوى إسـلامية هـي أقرب إلى الفكر الجهادي منها إلى العمل السياسي.

مـع تزايـد السـطوة الأمنيـة والقتـل في سـوريا، وبعـد مرور حوالي سـتة أشـهر على بدء الثورة السورية؛ أي في اوئل عام 2012، انتقلت المواجهة إلى مستوى جديد بين النظام السـوري وبـين قـوى سـارعت إلى تنظيـم نفسـها في سـوريا، وانتقـل الحراك السـلمي إلى مواجهـة مسـلحة. التحـول إلى المواجهـة المسـلحة دفع إيـران إلى التدخـل بزخم أكبر في دعـم النظام السـوري. التدخل كان بتبنّي تفسـير قائم على أن ما يحدث في سـوريا مرده وجود قـوى تكفيرية "وهابيـة" مدعومة من دول إقليميـة، منها تركيا والسـعودية وقطر، وأن هـذه الدول هـي التي تغـذّي حالة عدم الاستقرار في سوريا.

تبني إيران والنظام السـوري إستراتيجية إلقـاء اللـوم عـلى الجماعـات الإسـلامية كان يهـدف إلى تحقيـق جملـة مـن الأهـداف الإسـتراتيجية طويلـة الأمـد: الهـدف الأول تمثل في نقل الثورة السـورية مـن مربع الثورة الشـعبية المطالبـة بالتغيـير بطريقـة سـلمية إلى مربـع يجعـل منهـا مـشروع تهديـد للأمن الإقليمـي والـدولي. بهـذا يتـم اسـتجلاب الدعم الأوربي للحفاظ على النظام السـوري ومن ثَمّ المحافظة عـلى الوضع الراهن وعدم التغيير، وعليه ستكسـب إيـران بقاء الحليف الإسـتراتيجي. الهدف الثـاني يتعلق بالداخل الإيـراني والمتعاطفـين مـع إيـران في الخارج؛ وتفسـير ذلك أن إيران الجمهورية الإسلامية هي نتاج ثورة شـعبية قام بهـا الإيرانيون على نظام مسـتبد، وطالما تغنت إيـران بأنها تدافع

عن المظلومين، وعليها تسويغ موقفها السياسي ودعمها لنظام بشار الأسد، لذا فإن الأمر يستدعي التركيز على أن ما تفعله إيران في سوريا إنما هو مساعدة النظام في الحفاظ على أمنه أمام حركات تكفيرية وفق التوصيف الإيراني والسوري. بهذا يتوقع النظام السياسي الإيراني أن يستمر التأييد والدعم الداخلي له، ولاسيّما أمام تحديات اقتصادية متزايدة؛ بسبب العقوبات. من جهة أخرى يأمل النظام السياسي الإيراني أن يحافظ على قاعدة المتعاطفين في خارج إيران الذين يرونها مثالًا يحتذى في الدفاع عن الحق ومساندة المقاومة. التركيز على فئة من الإسلام السُّني يستهدف أيضًا الرد على من يسمون إيران بالمذهبية، وكأن طهران تقول أن لا مشكلة لها مع غالبية أهل السُّنة وإنما مع أولئك التكفيريين وفق التعبير الإيراني والسوري. في هذا السياق كان حضور حزب الله في مشهد الثورة السورية؛ حيث إن الحزب كان يرى أن النظام السوري استنفذ كل أدوات التغيير السلمية، لكن من يراهم الحزب من التيارات التكفيرية خطفت المطالبات السورية بالتغيير، وجرّت النظام السياسي إلى استخدام القوة للحفاظ على وجوده.

الموقف الإيراني ومعه حزب الله لم يكن بعيدًا عن موقف روسيا الاتحادية العضو الدائم في مجلس الأمن الدولي التي كانت في موقفها أقرب إلى الموقف والتفسير الإيرانيين. فروسيا ترى أن هناك أزمة وحربًا أهلية في سوريا ، وهو المصطلح الذي أخذ مساحة كبيرة في الإعلام الغربي. وعليه من الضروري الدفاع عن الدولة في سوريا حفاظًا على الأمن والاستقرار الإقليميين والدوليين. هذا الموقف الروسي كان الحائط الصلب الذي كان يمنح إيران قوة إضافية في موقفها من الأزمة السورية، ذلك أن الموقف الروسي متبوع بأدوات سياسية، وهي حق استخدام الفيتو في مجلس الأمن. هذا يعني تعطيل القرارات الدولية التي يمكن أن تدفع بها دول مثل الولايات المتحدة أو فرنسا لتبني مواقف متماسكة من النظام السوري، أو حتى المضي لاستخدام ورقة الفصل السابع في مجلس الأمن. لقد وفرت روسيا ومعها إيران غطاء حماية لافت للنظام السوري، ولاسيما في موضوع استخدام الأسلحة الكيماوية، وقد كان واضحًا أن روسيا تريد أن تقطع الطريق أمام أي فرصة للعمل العسكري ضد النظام السوري، سواء تحت غطاء أممي، أم بجهد فردي من دولة بعينها، مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد كان الموقف الإيراني وتناميه من الثورة السورية ودعمه المتزايد للنظام السوري يسيران في خط مواز من حيث الثمن الذي يترتب على إيران. فالانتقادات لدعم طهران السياسي، كانت الجمهورية الإسلامية تواجهه من خلال التشكيك في مدى مصداقية ما يحدث في سوريا، وأنه ليس إلا مؤامرة كونية على سوريا. وفي السياق نفسه تسعى إيران إلى الإبقاء على نظرية المحاور التي كانت قبل بدء ما يسمى بالربيع العربي، حيث كان الحديث عن

محـور الاعتدال الذي شـمل مـصر والأردن والمملكـة العربيـة السـعودية القريبـة كلهـا من الولايـات المتحدة الأمريكيـة. في المقابل هنـاك محـور المقاومـة الذي تـرى إيـران أنها على رأسـه هي مع سـوريا وقوى مثل حزب الله وحركـة حمـاس التـي تراجعـت علاقاتها مع إيران بسـبب موقفها من الثورة السورية. خريطـة التحالفات الجديدة التـي ترى إيران أنهـا فاعلة في المنطقة تشـمل المملكـة العربية السـعودية وقطـر وتركيـا، وهـي دول وفـق التعريـف الإيراني حليفـة للولايات المتحدة. في هذا السـياق تأتي إيران بمـن تطلق عليهم التيارات التكفيرية الوهابية، والتي ترى فيهم جـزءًا من التحالف الذي يعمل على إسـقاط نظام بشار الأسد.

لقد دفـع الموقف الإيراني مـن حماية نظام بشار الأسد وعدم الاهتمام بالكلفة العالية من الضحايا من الشعب السوري إلى مواجهة مع أطـراف متعددة. فالعلاقة مع المملكة العربية السعودية دخلت في خريف حقيقي ومواجهة إعلامية واضحـة. في المقابل لم تتردد إيران في انتقـاد تركيـا في موقفها من الثورة السـورية، وتأمين مـلاذ للمعارضين للنظام السـوري. يضـاف إلى ذلك أدخل الموقف الإيراني ومعه حزب الله المشـهد السـياسي اللبناني إلى مزيد مـن التوتر، حيـث زادت القطيعة بين القوى السياسـية اللبنانية ذات العلاقة مع السعودية مثـل تيار المسـتقبل وحـزب الله. كـما أن تيار الحـزب التقدمـي الاشـتراكي بزعامـة وليـد جنبـلاط زاد من انتقاداته لحزب الله وتدخله في الثورة السورية التي تحولت بإرادة المجتمع الدولي إلى أزمة دولية.

نقلت المواقف المتباينة من الثورة السورية المنطقـة إلى مرحلـة الحـرب البـاردة بـين كل مـن الجمهورية الإسـلامية والمملكـة العربية

لقد دفع الموقف الإيراني من حماية نظام بشار الأسد وعدم الاهتمام بالكلفة العالية من الضحايا من الشعب السوري إلى مواجهة مع أطراف متعددة. فالعلاقة مع المملكة العربية السعودية دخلت في خريف حقيقي ومواجهة إعلامية واضحة

السـعودية. وقد زاد مـن التوتر مواقف إيران من التطـورات في البحرين، وكذلك العلاقة مـع الحوثيـين في اليمـن، والتـي أسـهمت بشـكل كبـير في تدمـير مـا كان يسـمى دولة في اليمـن، وتعميـق فكـرة الدولـة الفاشـلة في اليمـن. ورغـم الفجـوات في المواقف فإن إيـران واصلت خياراتها السياسـية ومواقفها في سـوريا واليمـن. لكنهـا في الوقـت نفسـه اختـارت أن تنفتـح على الغرب وعلى رأسـه الولايـات المتحـدة الأمريكيـة. حصل ذلك مـن اتفـاق الإطـار بشـأن البرنامـج النووي الإيـراني في عـام 2013 ، ثـم اتفـاق الإطار في أوائل عام 2015 الذي سيشـكل أساسًـا للاتفـاق النهائي في أواخـر حزيران 2015. لقد أسـهمت التطورات السياسية بعد الربيع العربي في فرض خيارات سياسـية على إيران، ربما لم تكن لتقبلها من قبل. إن حرص النظام السـياسي الإيراني لا حكومة الرئيس حسـن روحـاني فقط عـلى التوصل إلى اتفاق بشـأن

البرنامج النووي الإيراني لا يبدو بعيدًا عن الخسارة التدريجية التي تواجهها إيران في ملفات مثل سوريا وكذلك العراق واليمن. إيران تبدو في مرحلة تحضير البدائل السياسية التي تقلل من وقع الخسائر أو التغييرات التي ستطال المنطقة في حال سقط النظام السياسي السوري بشكل كامل. في هذا السياق ينبغي التوقف عند نقطة بالغة الأهمية، وهي أن إيران منذ عام 2011 في مخمصة سياسية فعلية، فالعلاقة مع النظام السوري التي كانت في يوم من الأيام نقطة تفوق لإيران وعامل ربح، تحولت إلى علاقة عنوانها "النظام العبء"، فالنظام السوري تحول إلى عبء سياسي واقتصادي على إيران، وربما لولا وجود علاقة خاصة بين الحكومة العراقية وإيران لم تكن إيران لتنفق على النظام السياسي السوري. من هنا يجب التذكير أن الخسارة وقعت بالفعل، وهي تواجه إيران، وما يحصل منها ما هو إلا محاولة إلى محاصرة تلك الخسائر. معركة إيقاف مسلسل الخسائر ربما هو ما يفسر انتقال إيران إلى إستراتيجية التدخل العسكري المباشر في سوريا من خلال مستشارين في الحرس الثوري، ومن خلال تأمين عملية حشد قوات للقتال إلى جانب النظام السوري. فبعد التدهور الذي واجهه الجيش السوري، والانتقال إلى قوات الدفاع الوطني التي حاولت إيران أن تجعلها رديفًا شعبيًّا للجيش السوري، بقيت قوات النظام في تراجع، لذلك جاء خيار حشد قوات من خارج سوريا. ما تدركه إيران أن الجيش السوري قد استنزف من جهة، أو أن أعدادًا كبيرة منه غير قابلة للثقة بها. وقسم آخر لم يعد مستعدًّا للانضمام إلى الجيش حتى ضمن سياسة التجنيد الإجباري، وذلك بسبب مغادرة ملايين السوريين لبلادهم. عملية حشد قوات من خارج سوريا أعادت إيران إلى مربع الدولة الطائفية التي تستغل شبكة علاقاتها مع الشيعة في أفغانستان وباكستان. يشار إلى أن إيران تحتضن حوالي مليونَي لاجئ أفغاني منذ الحرب الأهلية في أفغانستان في ثمانينيات القرن العشرين. هذه المرحلة تزامنت مع الصعود المتسارع لحضور الدولة الإسلامية في العراق والشام، وسيطرتها على أجزاء من سوريا والعراق، وهو ما نقل السياسة الإيرانية من الثورة السورية إلى مستوى جديد لكنه لا يبدو مختلفًا عمّا سبق.

على صعيد متصل لا تبدو إيران متفاجئة بما يتحقق من سقوط أجزاء من العراق وسوريا تحت سيطرة الدولة الإسلامية في العراق وسوريا، ذلك أن السياسة الإيرانية والموقف من تطورات سوريا والعراق لم يبرحا مكانهما، حيث بقي التركيز على أن هناك تحالفًا يدعم من تسميهم التكفيريين، لكنها لا تبدو مستعدة للقتال بالنيابة عن النظام العراقي أو النظام السوري. إيران تبدو في وضعية من يدير أزمة ولا يريد أو يسعى إلى حل جذري لها. ومرة أخرى تستفيد إيران من الفوضى السياسية عند الآخرين، فاستمرار تردي الأوضاع حتى التوصل إلى اتفاق بشأن البرنامج النووي الإيراني يكاد يكون أمنية إستراتيجية لإيران. ذلك أن الانشغال الأمريكي سيبقى منصبًّا

على الحرب على الإرهاب. على صعيد متصل فإن إيران تبدو في حالة تردد من مستوى التدخل العسكري الذي يمكن أن تذهب إليه. طهران طالما أشارت إلى أنها لا تريد حروبًا أخرى بعد الحرب العراقية الإيرانية. القلق من ردة الفعل الدولية عامل حاسم فيما يتعلق بمستوى التدخل العسكري الإيراني، يضاف إليه تسويغ ذلك على المستوى الإيراني الداخلي.

ماحصل في سوريا منذ عام 2013 يظهر أن التدخل الإيراني ومعه تدخل حزب الله لم ينجحا في تحسين الموقف العسكري للنظام، وهو أمر يجعل الطرفين في حرج، ولاسيما بعد الخسائر التي مني بها حزب الله، والتي دفعته إلى الإعلان عن أنه سيفتح باب التطوع. ولم يتوقف الأمر عند مواجهة الدولة الإسلامية في سوريا بل في العراق أيضًا، حيث لم تستطع قوات الحشد الشعبية العراقية ذات الهوية الشيعية الدفاع عن مدينة تكريت إلا بعد التدخل الأمريكي من خلال الغطاء الجوي.

كان الصعود المتسارع لظاهرة الدولة الإسلامية، والتقدم العسكري الذي حققته في سوريا والعراق بمثابة اختبار إلى المدى الذي يمكن أن تتحرك فيه إيران في دفاعها عن النظام السياسي في سوريا، أو حتى الوضع السياسي في العراق. ما ظهر بشكل شبه جلي أن الموقف الإيراني ليس متماسكًا بالشكل الذي يتحدث عنه خصوم إيران. صحيح أن هناك محافظة على الوضع بشكله الخارجي، لكنها محافظة مكلفة لإيران سياسيًّا واقتصاديًّا، ولاسيّما مع التراجع الكبير في أسعار النفط الذي ينذر بأخطار أكبر تواجه الاقتصاد الإيراني. كل هذا يفسر "سياسة الخروج" التي تحاول طهران تبنيها من خلال

توافق حول برنامجها النووي، على أمل أن يحصل هناك نوع من التوازن بين موازين الخسارة والربح التي تواجهها طهران نتيجة خياراتها السياسية في المنطقة.

خاتمة

لا يبدو أن طهران مستعدة لتغيير جوهري في كيفية تعاملها مع الوضع السياسي المتفجر في سوريا. الخيارات تبدو محدودة بالنظر إلى المتغيرات السياسية الإقليمية والدولية، ولاسيّما نظرية "الفراغ السياسي"، وتهشيم ظاهرة الإسلام السياسي المعتدل المتمثل في حركة الإخوان المسلمين التي كانت طهران تستثمرهما خلال أكثر من عقد من الزمن. يبدو أن ظاهرة غياب اللاعبين أو تغييبهم من خلال تسليم الأمور إلى الولايات المتحدة الأمريكية مرشحة إلى زوال ولو بشكل مرحلي. ما حصل في اليمن مؤشر على ذلك. العملية العسكرية عاصفة الحزم لا يبدو أنها رد فقط على السياسة الخارجية الإيرانية نحو اليمن، بل تبدو خيارًا يمكن أن يعمم. من هنا ظهر الحديث عن عاصفة حزم مرتبطة بسوريا من خلال تعاون سعودي تركي.

العلاقة بين إيران وروسيا تكاد تكون أحد العوامل التي ستلقي بظلالها على مواقف طهران من الملف السوري بشكل خاص. ليس معلومًا مدى السياسة الصدامية التي تتبناها روسيا في مواجهتها لواشنطن فيما يتعلق بالملف السوري. ما هو ظاهر أن روسيا ليست مسرورة بالاستعجال الإيراني في الوصول إلى صفقة مع واشنطن. مسألة التوقيت مهمّة لموسكو. بالنسبة لروسيا فإن التوصل إلى اتفاق يعطي لواشنطن نقطة تفوق دبلوماسي. هذا التفوق لم تستطع واشنطن أن تحققه لولا السياسة الروسية نحو الثورة السورية التي عطلت مقترحات ومشاريع قرارات دولية اقترحتها واشنطن. لعبة البدائل التي أتقن كلّ من طهران وواشنطن تنفيذها لا تبدو أنها ستكون بلا تأثيرات سلبية في السياسة الروسية في المنطقة بشكل عام. في هذا السياق يجب تأكيد ضرورة مراقبة اليوم التالي لتوقيع الاتفاق النهائي بشأن البرنامج النووي، وكيف ستكون شكل العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الجمهورية الإسلامية من جانب، وبين روسيا والجمهورية الإسلامية من جانب آخر. شكل تلك العلاقات سيكون مؤشرًا لطبيعة السياسة الإيرانية نحو سوريا، وما إذا كانت ستتغير تدريجيًّا أو كليًّا، أو أنها ستحافظ على مسارها ومنطلقاتها التي اتبعتها خلال السنوات الخمس الماضية.

المواجهة بين الرياض وطهران تبدو مرشحة للاستمرار في سياق حرص كل طرف باللجوء إلى قواعد لعبة يحقق فيها تفوقًا بالنقاط وليس بالحسم الكلي. إيران غير قادرة ولا تبدو في وضع يؤهلها إلى أن تحسم الأمور في سوريا لصالح النظام السياسي. من جهة أخرى لا تبدو الرياض قادرة على حسم نهائي في اليمن، لكنها في ذات الوقت تبدو متأكدة مع حلفائها أنها أحدثت ارتباكًا حقيقيًّا في السياسة الإيرانية نحو اليمن، ارتباك من شأنه أن يحد بشكل

كبير من فرص الحوثيين بتكرار أي تجربة شبيهة بتجربة حزب الله في لبنان.

بعد مرور حوالي خمس سنوات على ظاهرة الربيع العربي، تبدو الجمهورية الإسلامية منهكة سياسيًّا من محاولاتها الاستثمار في حركة التغيير التي تشهدها الساحة العربية. فقد اعتادت الجمهورية الإسلامية التركيز على فكرة الخصم الأوحد الذي من شأن الموقف منه أن يجلب الأصدقاء والحلفاء، والمقصود هنا أن الموقف من إسرائيل والموقف من الولايات المتحدة الأمريكية كانا يعطيان إيران صورة إيجابية، لكن بعد موقف طهران من حركة التغيير ولاسيما في سوريا واليمن، تغيرت الصورة إلى العكس تمامًا، فالمواقف السياسية الإيرانية أصبحت تجلب عليها غضبًا على مستوى الرأي العام، وعلى مستوى الحكومات، والانسجام في الموقف، بحيث لم يحدث أن وصل إلى هَذا الشكل والقوة منذ قيام الجمهورية الإسلامية. هذا التغير متأثر بدون شك بالفضاء السياسي الطائفي الذي يخيم على المنطقة منذ عام 2003، والذي يبدو من الصعب تبرئة إيران من تأدية دور في تأجيجه.

المصادر والمراجع:

للمزيد حول تطورات العلاقات بين إيران وسوريا انظر:

Goodarzi Jubin: Iran and Syria: http: / / iranprimer.usip.org /resource /iran-and-syria

انظر :

Bazoobandi: Sara: Iran's Regional Policy: Interests Challenges and Ambitions http: / /www.ispionline.it /sites /default /files /pubblicazioni / analysis_275__2014_0.pdf

الزويري، محجوب: إيران "الثوريّة" والثّورات العربيّة: ملاحظات بشأن السّياسة الخارجيّة الإيرانيّة ومآلاتها، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، http: / /www.dohainstitute.org / -4ca7-b405-release /04639ddd-9155 94446fe2d80b

الزويري، محجوب: العلاقات السورية الإيرانية والحراك الشعبي السوري، مركز الجزيرة للدراسات، http: / /studies.aljazeera.net /reports /2011/08/11 /20141824131918157377.htm

الاستخدام الممنهج لمصطلحات مثل: التكفيريين، الوهابية... يبدو واضحاً في وسائل الإعلام الإيرانية، على سبيل المثال انظر:

http: / /search.farsnews.com /s /?type=all&q=%D8%AA%D9%83%D9%81%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A7%D9%86&date-from=&date-to=1394/08/11

التكفيريين=http: / /www.alalam.ir /search?q

للمزيد حول اتفاق الإطار المتعلق بالبرنامج النووي الإيراني لعام 2013 انظر:

http: / /eeas.europa.eu /statements / docs /2013 /131124_03_en.pdf

للمزيد حول عملية عاصفة الحزم التي قادتها المملكة العربية السعودية انظر:

http: / /www.aljazeera.net / encyclopedia /military /2015 /3 /26 /%D8%B9%D8%A7%D8%B5%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B2%D9%85

Iran's Presence In The Syrian Crisis: An Analytical Reading

DR. MAHJOUB ZWEIRI

This study provides an analytical view on the paths of the Iranian position towards the Syrian revolution that has transformed into a crisis. These paths start with the beginning of the Syrian revolution and took shape according to the daily developments in the Syrian political scene as well as the developments in the Iranian regional and international political scene. The study reviews the rapid changes that affect important issues in which Iran is involved whether it has to do with the Iranian nuclear issue and the final agreement expected by the end of June 2015 as well as possible effects of Decisive Storm in Yemen on the Iranian position towards the Syrian revolution as well as the impact of the progress achieved by ISIS and whether it would benefit Iran or adds new challenges to the Iranian politics in the Arab political scene in general.

It does not seem that Tehran is ready for fundamental change in how it deals with the volatile political situation in Syria. The options seem to be limited given the regional and international political changes especially the theory of "political vacuum" and after the ending of the phenomenon of moderate political Islam represented by the Muslim Brotherhood Movement which Tehran was investing in for more than a decade. It seems that the absence of players or disregarding them by handing things over to the United States is a phenomenon that seems to come to an end though seemingly temporarily. What happened in Yemen indicates this. It doesn't seem that the military operation Decisive Storm is only a response to Iran's foreign policy toward Yemen; it rather seems to be as an option that could be generalized. Therefore a Decisive Storm in Syria by Turkish-Saudi cooperation was suggested.

The relationship between Iran and Russia is almost one of the factors that cast shadows on Tehran positions particularly towards the Syrian issue. The extent and the confrontational policy that Russia would adopt in confronting Washington concerning the Syrian issue.